الفصل الرابع

معيار المحرقة

تتميزُ نقاشات يومنا هذا حول العنف السياسي قبل أي شيء بالتجنب الملحوظ لكلمة الإبادة الجماعية، ويعود هذا جزئيًّا إلى أسباب سياسية، فعندما تعترف الدولُ والمنظمات الدولية بالإبادة الجماعية، يعني ذلك وجود الحاجة إلى اتخاذ إجراءات سياسية وقانونية، ولكن هذه النزعة تستنبط أيضًا من الارتباك النظري المحيط بالمفهوم الذي يستنبط بدوره من ثلاثة مصادر تبدو مختلفة، لكنها مكملة لبعضها فعليًّا، أولها نُشوء المحرقة معيارًا أقصى يجبُ أن تصل إليه الحوادث الأخرى ليتم الاعتراف بها، وليس مفاجئًا أن معظم تلك الحوادث فشلت في ذلك، وثانيها هو توظيف التطهير العرقي مفهومًا للعنف الأقل درجة من الإبادة الجماعية، الذي تمت مواءمة العديد من الحالات المرفوضة له، فيأتي التطهير العرقي من دون الحظر القانوني الحتمي الذي يرافق الإبادة الجماعية، بل ويُشكل تحدِّيًا نظريًّا أخف وطأة، فهو مصطلح تلطيفي أصغر تم تبنيه لأسباب فكرية وسياسية، والسبب الثالث هو تكاثر مصطلحات الإبادة في الخطاب الرسمي والشعبي والعلمي، لتعرُّف أشكال عديدة من الإبادة الجماعية بأسماء مختلفة، وفي هذا الفصل والفصول

اللاحقة سأتفحصُ هذه النزعات، وأطرح إمكانية تحصيل فهم أفضل للمسائل التي تتضمنها -أهمها التباين في عمليات الإبادة الجماعية، والعلاقات بين القتل وأشكال الإكراه الأخرى- ضمن إطار عمل نظرية الإبادة الجماعية.

التفرُّد

يبقى فهم الإبادة الجماعية -التي وُلدت في العصر النازي، وعُرِّفت في إثرها- في ظلال ما أصبح يُدعى المحرقة، واستحوذَ هذا الموضوع على الانتباه العلمي بصورة كاسحة، ومع ذلك يبقى ذلك أكثر توازنًا من الجدل الشعبي، وتعليم الثانوية اللذين اتخذت فيهما المحرقة مرتبةً عُظمى من الأهمية، وتم إحياء ذكراها بصفتها الموضوع المهيمن في الحرب العالمية الثانية، وغالبًا ما اعتمد الاعتراف بحالات أخرى في تلك المجالات -تاريخية مثل أرمينيا ومعاصرة مثل رواندا- على إنشاء «صلة لها بالمحرقة»[1]. ويقوم الجدلُ بانتظام حولها فيما يتعلقُ بأوجه الشبه، وينتجُ من هذا التحيُّز تشوه واضح في معنى المحرقة، الأمر الذي أثَّر في دراسات الإبادة الجماعية الأكاديمية، وغالبًا بطريقة جدالات نقدية حول تفرُّدها وإمكانية مقارنتها أو عدمها بالحالات الأخرى، وقد امتدت الجدالات إلى درجة أن أنصارها اتهموا بعضهم بعضًا بإنكار المحرقة، وأن أهمية المحرقة تتناقص من دون تفرُّد، أما ما يتعلق بالحالات الأخرى ذات الأهمية الأقل إن عددنا المحرقة متفردة بدمويتها، فيُخبرنا تشارني عن «الحروب العقائدية والتعصب القومي» في دراساته عن الإبادة الجماعية.

> ثمة نمط مُربك من المزاعم حول التفرُّد منقطع النظير للمحرقة، ومقدار لا يستهان به من القوة السياسية المستخدمة في أماكن كالجامعات

والمتاحف والمجتمعات لمؤازرة تلك المزاعم بقمع غير الموافِقين ونبذهم، وأن «العديد من المزاعم المعاكسة ليست أقل إرباكًا -مهما حاولت تبريره النوايا الأخلاقية، والمتعلقة بعلم المعرفة لوضع الإبادة الجماعية لجميع الشعوب على المستوى نفسه من المأساة والشر- إذ تستمرُّ في التقليل من رعب المحرقة، وتعرِضُ انعدامًا مؤذيًا في احترام الضحايا»[2].

وفي حين لا يوجد إنكار للتأثيرات السياسية والأخلاقية المدمرة لحروب مماثلة حول عمليات الإبادة الجماعية، تبقى معانيها الضمنية للفهم محل عناية هذا الفصل، ويطرح موزس أن «أفضلية وجهة نظر الضحايا تعكس صدمات المجموعة التي تُعيقُ التطور التصوري، إضافة إلى الاعتراف المُتبادل»[3]، وكثيرًا ما أخذت دراسات المحرقة الفهم الأكاديمي أبعد من المفهوم الشامل للإبادة الجماعية بوصفها جريمة، واتجهت نحو البحث عن إدراك أدق للحالة النازية؛ أي إنه في حين قدَّمَ لِمكن مفهومًا عامًا في قانوني الهدف واجتماعي الصفات، ثابرت دراسات المحرقة على تاريخيتها بالمعنى المحدود، ولكن يُمكن استخدام بحوث المحرقة لتوضيح الفهم العام للإبادة الجماعية، ولكن عندما لا يتوافر إطار عمل تصوري مناسب لِيُثري البحث، يبقى البحثُ إما خصوصيًّا ببساطة، أو يؤدي إلى مقارنات ظرفية بين حالات يصبح فيها واحدها معيارًا للبقية.

انصرف المناصرون في جدال التفرُّد إلى مقايضة مقارنات بعض الحالات ببعضها الآخر دون تقديم إطار عمل عام يمكن له أن يفسرها كلها، ويُعد كاتز نموذجًا رئيسًا في هذا المجال، فعملهُ يوضح إسباغ المثالية السلبي الذي تضمنته المزاعم حول تفرُّد المحرقة، ولأجل تقديم المحرقة بصفة الحالة التاريخية

الوحيدة للإبادة الجماعية انصرف كاتز عن لِمكن، واعتراف بذلك، بل وأساء فهمه بصورة فادحة، ويُعلقُ بعد اقتباسه تعريف لِمكن للإبادة الجماعية التي نفذها النازيون؛ خطةً مُنسقةً لأفعال مختلفة تهدف إلى تدمير الأساسيات الجوهرية للحياة لمجموعات قومية، بغرض إبادة المجموعات نفسها قائلًا:

«إن هذا وحده يُعرِّفُ ما يسميه المرء اليوم بالمحرقة، وهو ما فُهم على أنه الإزالة الحيوية الكاملة للشعب اليهودي، إذ لا يبدو تعريف المصطلح بطريقة تختلف عن تلك التي تنطبق تحديدًا على المحرقة (أي إنها تجعل الرؤية نسبية أو تخسرها في التمييز في سياق المحرقة) اعتباطيًّا وحسب، بل ومعكوسًا منطقيًّا ومن ناحية الظواهر»[4].

وما يعد شاذًّا بحق هو أن تأخذ مفهوم لمكن الشامل بوضوح حول تدمير المجموعات القومية، وتختصره في الإزالة الحيوية للشعب اليهودي، كما لو كان المفهوم العام لا يحمل أي معنى نهائيًّا، ويُسلِّمُ كاتز جدلًا في طرحه لتفرُّد التجربة اليهودية بالأفكار التي طُرحت، والمبنية على عدد الضحايا، أو على النسبة التي قُتلت من التجمع السكاني، وضمن هذه الشروط يبدو جليًّا أن التجربة ليست بحالات أخرى شنيعة، ولكنه يضعُ حدًّا فيما يتعلق بتفرُّد النية النازية بقتل كل يهودي في العالم، وكان هذا بدوره تلميحًا للنقاد ليناقشوا أنه «لم يتم قتل المزيد أو نسبة أكبر من التجمعات السكانية الأخرى وحسب، بل إن قتل كل يهودي لم يكن في النية النازية، أو أن النازيين اعتدوا أيضًا على مجموعات كالغجر بأهداف مشابهة، أو أن معتدين آخرين كانت لهم نوايا مشابهة»[5]. يقترحُ تشارني أن المشكلة لم تكن في أن الجدال تجاوز في بعض الأحيان الحدود المناسبة أخلاقيًّا فقط، فهو يضع المسألة الحقيقية حول القتل في الإبادة الجماعية في غير محلها.

تُشكل هذه الفكرة خطر التشويه الجدِّي، ليس للإبادة الجماعية التي نفذها النازيون عمومًا وحسب، بل للإبادة الجماعية بحق اليهود (راجع الإطار 4.1 للحصول على خلاصة تُظهِرُ دور السياسات اليهودية في النمط الأكبر).

الإطار 4.1 مراحل الإبادة الجماعية النازية، 1933-1945م

قاد أدولف هتلر منذ عام 1921م حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني (الحزب النازي)، وعرض هتلر وجهات نظره حول تحسين النسل، وكذلك القومية والعنصرية ومعاداة السامية في سيرته الذاتية عامي 1925–1926م بعنوان كفاحي، وطوّر هتلر في وقت سابق عقلية إبادة جماعية تجاه اليهود، ولكن فكرة امتلاكه نية محددة لقتلهم جماعيًّا مرفوضة من المؤرخين الذين ينظرون إلى الإبادة الجماعية النازية على أنها تتطور بصورة متزايدة وواقعية.

1933-1938م مرحلة ما قبل الإبادة الجماعية

أتى هتلر بالإجراءات الاضطهادية المعادية لليهود عندما تولى الحكم في ألمانيا عام 1933م، ونظَّمها في قوانين نوريمبرغ لعام 1935م، وكانت أولى المؤسسات التي دُمِّرَت بالكامل الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي واتحادات التجارة، ووُضع الخصوم السياسيون وناشطو اتحاد التجارة في معسكرات الاعتقال الأولى، وقُتِلَ العديد منهم، وتزايد تهميش اليهود وعزلهم، وزادت الحياة صعوبةً بالنسبة إليهم، وغادر الشُبان والمثقفون بحلول عام 1939م، أما أفضل ما توصف به هذه المرحلة فهو القمع الوحشي، وهي التي وضعت الأُسس لسياسات الإبادة الجماعية الأكثر صراحة التي تلتها.

1938-1939م الانتقال إلى الإبادة الجماعية

أصبح هتلر بحلول عام 1938م مُتوسعًا دوليًّا؛ يهدِفُ إلى إدخال الأراضي التي فيها تجمعات سكانية ناطقة بالألمانية إلى الرايخ الألماني، وجعل سياساته

المعادية للسكان متجذرة في العملية، وتضمن ضمّ النمسا إجراءات سحقٍ لليهود النمساويين، ما أدى سريعًا إلى مصادرة أموال أولئك الذين لم يستطيعوا الهرب وترحيلهم، كما تبع احتلال سوديتينلاند في تشيكوسلوفاكيا ممارسة العنف ضد اليهود والتشيكيين وترحيلهم، وامتد ذلك إلى كامل البلاد عندما تمَّ احتلالها عام 1939م، ونُفذ ما سُمي بالكريستال ناخت (ليلة الزجاج المكسور) خلال الرايخ في تشرين الأول عام 1938م، وهي التي صممت العنف ضد اليهود وممتلكاتهم.

1939-1941م المرحلة الأولى من الإبادة الجماعية

أرَّخ الاجتياح الألماني لبولندا في 1939م بداية الإبادة الجماعية على المدى الواسع، إذ قُتِلَ المختلون عقليًّا في المستشفيات الألمانية؛ لإفساح مكان للجرحى المنتظر وصولهم من الجنود، وتم فصل المجتمعات البولندية واليهودية في بولندا الشرقية ليُفسحوا للمقيمين الألمان، وأُجبِرَ السكان على الانتقال نحو الشرق، في حين قُتلت النخبة البولندية، واعتُقل اليهود من شتى أنحاء بولندا في أحياء غيتو مُغلقة وبائسة، ومات العديد منهم بسبب الظروف المروعة والوحشية، واتُّخِذت الإجراءات المعادية لليهود في معظم أنحاء أوروبا الشرقية التي احتلتها ألمانيا، واجتاح الاتحاد السوفييتي بمساعدة ألمانيا دول البلطيق وبولندا الشرقية، ونفّذ عمليات النزوح القسري الخاصة به للتجمعات السكانية، وقتل النخبة البولندية، وأشهرها كانت مذبحة كاتين عام 1940م التي لام ستالين النازيين عليها عندما اكتُشِفت.

1941-1945م المرحلة الثانية من الإبادة الجماعية

تم تصعيد الإبادة الجماعية النازية إلى قتل جماعي مُكثَّف مع الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي عام 1941م، وحلم النازيون بإمبراطورية عنصرية واسعة خاليةٍ من اليهود وفيها عدد متناقص من السكان العبيد من السلافيين، حيث عُومِل التجمع

السكاني بوحشية، في حين قُتِلَ اليهود والشيوعيون بصورة منظمة من قِبلِ الجيش الألماني المتقدم، ومجموعات القتل التابعة لفرقة القوات الخاصة الألمانية، وتُرِك مليونان من أسرى الحرب السوفييت ليموتوا جوعًا، وبما أن القتل على جانب الطريق لم يكن فعالًا فقد بدأ النازيون ببناء منشآت إبادة ضمن نظامهم للمخيمات، وأدى ذلك إلى برنامج للقتل الجماعي رُحِّلَ إليه اليهود وآخرون من أنحاء أوروبا كلها، وطوّر حلفاء ألمانيا برامجهم الخاصة بهم للقتل والطرد، في حين طرد الاتحاد السوفييتي أممًا -سماها لا يُعتمد عليها- إلى سيبيريا ومناطق أخرى نائية في استباق منه للاجتياح الألماني واستجابة له أيضًا.

وبِغضِّ النظر عما إذا كان النازيون يهدفون بالفعل لقتلِ كل يهودي في العالم، حتى في أوروبا المحتلة ناهيك عن العالم أجمع، فقد تضمنت سياساتهم في الإبادة الجماعية عمومًا مواقف محددة وصارمة لاحظها لِمكن تجاه مختلف الشعوب المُحتلة، فكيف يمكننا أن نُشخِّص تلك الاختلافات؟ إن استطعنا وضع حدٍّ واضح فيما يتعلق بدور القتل في تلك الأنماط، لا شك أنها يجبُ أن تكون بصفة وسيلة للتدمير الاجتماعي العام للمجموعات، ويكون القتل غاية للسياسة نفسها عندما تكون الإبادة البدنية الممنهجة هدفًا للسياسة، ومن هذا المنطلق أصبحت السياسات النازية تجاه الناس المُعاقين ونُخبة البولنديين واليهود وأسرى الحرب السوفييت والغجر فتّاكةً على مراحل عدة من الحرب العالمية الثانية، إلا أن السياسات تجاه تلك المجموعات وحتى اليهود منها لم تكن دموية بصورة متساوية في مراحل الحكم النازي جميعها، وحالتي الحرب والاحتلال، فإذا رسمنا الحد المفترض فإنه سيفصل مرحلة الحل النهائي لسياسة معاداة اليهود النازية عن المراحل المبكرة التي لم يتم تبني هذا الهدف فيها، ولا

يمكننا إعادة قراءة المراحل الأولى بطريقة مختلفة بموجب مبدأ المرحلة النهائية على فرض أن تطور السياسة كان مُتدرِّجًا وسياقيًّا ومُتفاعلًا[6].

كان التحول تجاه الإبادة البدنية المتعمدة -من خلال الجريمة البسيطة ضد أكبر عددٍ ممكنٍ من الأفراد الذين يُعرَّفون بصفة منتمين لتصنيفات قدر الإمكان- تطورًا صادمًا، فلا عجب أن الكثير من الجهود التاريخية اتجهت نحو تحديد النقطة التي اتُّخِذَ فيها القرار في حالة اليهود، ولكن العجيب أن ذلك لا ينطبق على الحالات الأخرى، هذا إن كان هناك بالفعل قرار واحد، وخلال السنوات التي قضاها هتلر في التخطيط لهذه السياسة قبل أن يُطبِّقها مهما كانت نتيجة تلك التحقيقات، فإنه من الضروري جدًّا فحصُ مسار سياسة معاداة اليهود خلال المرحلة الكاملة للحكم النازي بصفتها عملية متطورة واحدة، وكان تعريف اليهود بصفتهم أعداء، وفكرة تدمير قوتهم الاجتماعية المنسوبة إليه حاضرينِ خلال تاريخ الحزب النازي، إلا أن سياسة الإبادة البدنية المُنظَّمة قد طُوِّرَت فقط عامي 1941-1942م، وكانت المرحلة النهائية لأطول تاريخ مرتبط بالإبادة الجماعية، وبصورة مماثلة كانت إبادة اليهود مجرد دفعة من دفعات عدة من هذ النوع كما يقترح كريستوفر براونينغ Christopher Browning:

> لو اختفى النظام النازي من الوجود في النصف الأول من عام 1941م، لكانت أبشع إنجازاته في تدمير البشرية هي ما يُسمى بالقتل الرحيم لسبعين أو ثمانين ألف ألمانيٍ مُختلٍ عقليًّا، والقتل الممنهج للنُخبة البولندية، لو أن النظام اختفى في ربيع عام 1942م، لاعتمد سوء سمعته التاريخي على حربه التدميرية ضد الاتحاد السوفييتي، ولكانَ برزَ الموت الجماعي لنحو مليوني أسير حرب في الأشهر التسعة الأولى من تلك المرحلة بصورة أعظم مِن قتلِ ما يُقاربُ نصف مليون يهودي في المرحلة نفسها[7].

obeikan.com

في نهاية الأمر اجتمعت قوة معاداة السامية النازية مع الطبيعة الصناعية للقتل الجماعي اللاحق، ومع العدد الكلي الأعظم للضحايا اليهود؛ لتترك اليهود متفوقين في الذاكرة التاريخية، والتقييمات البحثية حول دموية النازيين، ومع ذلك كان لتلك الدموية أهدافٌ عديدة تداخلت على أرض الواقع ومع تجارب الضحايا، إذ تطلبت سياسات القتل النازية مفاهيمَ مختلفة لتُمثِّلها، وبذلك يمكننا النظر إلى سياسات الإبادة على أنها تصاعد للسياسات العامة المتعلقة بالإبادة الجماعية لِما بعد 1939م.

يُمكن إدراك معنى المحرقة فقط في ضوء سياسات الإبادة الجماعية والحرب، التي كانت متعددة الأهداف لمجالٍ من مجموعات الضحايا، كان أبرزهم عقائديًّا وإحصائيًّا في نهاية الأمر اليهود، وترمزُ مقاربة كاتز وكذلك يقترح دافيد ستانرد David Stannard إلى فرعٍ استدلالي من الجدل البحثي: «يبدأ مناصرو التفرُّد بتعريف الإبادة الجماعية أو المحرقة من ناحية ما اعتقدوا بالفعل أنها تجارب خاضها اليهود فقط، وبعد البحث أكثر اكتشفوا -و يا للعجب- أن التجربة اليهودية كانت فريدة من نوعها»[8]. أو أن معايير كهذه إذا تم الاعتراف بإبادات جماعية أخرى تستخدم لتُميِّزَ قضية اليهود بأنها الأسوأ نوعيًّا. يقترح دانيال جولدهاجن Daniel Goldhagen؛ على سبيل المثال بِخلافِ الإبادات الجماعية الأخرى التي حصلت في سياق نزاعٍ حقيقي موجودٍ أصلًا حول الأرض، أو الطبقة الاجتماعية أو العرق أو الدين فإن ما حرَّضَ على المحرقة كراهية ألمانية وهمية تمامًا لليهود، ولا أساس لها في الواقع: «شيطنة المعاداة للسامية العنصرية الألمانية... بسبب بنائها الوهمي لليهود، وتطلبت بِخلاف الإبادات الجماعية الأخرى الإبادة الكاملة لليهود»[9]. يبدو أنه غير متنبه

إلى أن الأفكار الوهمية عن المجموعة العدوة شائعة في الإبادات الجماعية؛ مع أنها لا تؤدي دائمًا إلى الشروع في الإبادة الكاملة، وفي بعض الحالات مثل حالة رواندا قد تؤدي إلى ذلك.

وكما رأينا فقد كان اسم المحرقة نفسه اختراعًا لاحقًا، يقول فيليب لوبيت PhilipLopate:

«لم نكن نتكلم أبدًا عن المحرقة، كنا نقول معسكرات الاعتقال، غرفة الغاز، ستة ملايين يهودي، ما فعله النازيون قد يبدو وكأنه تقدُّم؛ أن نستخدم مصطلحًا واحدًا انسيابيًّا بدلًا من تلك التعابير الغريبة، ولكن وضع أي نعتٍ لتلك السلسلة الاستثنائية من المعاناة يخدم تقييدها وتلطيفها وجعلها تقليدية، وحالما دخل مصطلح المحرقة حيز التداول قرابة الستينيات جعلني منزعجًا، لقد كان يمتلك حس أهمية الذات، وفيه نبرة لغوية حديثة فظَّة، يُضاف إليها صوت مهمل خجول يرشحُ كما في الوقار الإنجيلي الميلتوني الذي يجلبُ إلى الذهن أقرباء جذابين كآرميجدون وَبهيموث وَلوياثان»[10].

و ما يُزعجني أخيرًا، يُعلِّق:

«حصرية الاستخدام الواحد، المحرقة، الذي يبدو وكأنه يفصل هذه الحادثة عن البقية، ويُنقص إن لم يكن يُحقِّر عمليات الذبح الجماعية التي ارتكبت بحق شعوب أخرى، ويُلغي المآسي السابقة في التاريخ اليهودي، إن صورة المحرقة مستبدة للغاية، ولاذعة جدًّا لتتحمل الفروقات الدقيقة، فإذا عددناها في حياتها صورة بلاغية، تكون المحرقة متنمرة على غيرها»[11].

إلا أن الحقيقة تبقى أن اسم المحرقة معروف ومتأصل اليوم إلى درجة يصعب معها الاستغناء عنه، رغم أن الخطاب اليهودي غالبًا يستخدم المحرقة،

ولكن تبقى أسئلة عديدة ثائرة، هل كانت المحرقة تعني الإبادة النهائية لليهود؟ أم الإبادة الجماعية النازية لليهود بمراحلها كلّها؟ أم الإبادة الجماعية النازية بصورة كلية وبضحاياها؟ ويلفتُ إرفنغ لويس هورويتز النظر إلى نقطة مهمة، فيقول: «إن التركيز على التفرقة بين الشعوب بطرح تفرُّدِ معاداة السامية هو خطأ بالغ؛ فهو يقلل من فرصة وجود وقفة إنسانية وسياسية موحدة بخصوص معنى الإبادة الجماعية أو المحرقة»[12].

هل ثمة معيار للدراسة المقارنة؟

يجادل غافريل روزنفيلد Gavriel Rosenfeld مجادلة ودية في محاولة لتسوية الخلاف بأن التفرد كان استجابة لتأريخ المحرقة وتسييسها: «يُفهم تبني الباحثين للتفرد بأفضل صورة على أنه جزء من الاستجابة الدفاعية الخجولة لمحاولات الآخرين الملموسة للتقليل من حجم الحدث لغايات دفاعية أو تهدف إلى التعديل»[13]. ورغم ذلك يخلص إلى أن:

> الجدال أثار أسئلة مهمة فيما يخص جدوى مفهوم التفرد، لقد نجم الجدل في حالات شتى عن اللبس الكبير في المفهوم، فمفهوم التفرد لا يعاني نقصًا في الوضوح اللغوي وحسب، بل يشير إلى ما لم يسبق له مثيل، ولن يكون من الممكن تكراره، وإنما يسفر عن نتائج مختلفة جدًّا بالاعتماد على المنظور التحليلي؛ أي التاريخي والفلسفي واللاهوتي، وما إلى ذلك...، فضلًا عن أن التفرد يعد مفهومًا ذا منفعة تبعث على الشك؛ بسبب سوء الفهم الذي أثاره بصفته مفهومًا نوعيًّا يحمل حكمًا أخلاقيًّا...، وبأخذ عوائق التفرد بالحسبان، ألا يمكن أن يُستبدل المفهوم بمصطلح يستحوذ على انتباه أقل لكن يتمتع بدقة أكبر مثل: التميز والخصوصية؟[14].

obeikan.com

لا يبدو هذا أكثر من تسليم بالمبدأ غير المثير للجدل لتشارني، الذي يقول: «إن حالات الإبادة الجماعية كلها تتشابه وتختلف فهي خاصة وفريدة، وعُرضة للتحليل المقارن على نحو ملائم»[15]، بيد أنه من الواضح أن تمييز المحرقة لدى روزنفيلد يجعلها عصيّة عن التأريخ؛ أي «يحولها إلى حدث مفهوم يمكن له أن يخضع لتحليل تاريخي منطقي وغالبًا بمساعدة نظريات التعميم»[16]، أما ما نحتاج إلى السؤال عنه فهو ما مشكلة هذا النهج الذي سيخضع له أي حدث تاريخي آخر؟ يبدو أن نوع تمييز المحرقة لدى روزنفيلد هو اعتراض من حيث المبدأ، إذ لا يمكن للجوهر المبهم والغامض للمحرقة -ولا ينبغي حتى- أن يُفَسر. يدّعي روزنفيلد أن المبادئ الخمسة الرئيسة المستخدمة في تأريخ -الشمولية والفاشية والنفعية والحداثة والإبادة الجماعية- «لم ينجح بدمج المحرقة في إطار تفسيري عام من دون تهميش فحواه بصورة كبيرة»[17]، لذلك سأحصر تعليقاتي في مقالته النقدية عن هدف باحثي الإبادة الجماعية بالزج بالمحرقة في سياق دراسات الإبادة الجماعية، وذلك بإخضاعها إلى تحليل مقارن وشديد، ووفقًا لروزنفيلد فإن هؤلاء الباحثين يجادلون بأن «المحرقة لم تكن مختلفة من حيث النوع عن وقائع أخرى من القتل الجماعي في التاريخ البشري...، ويركز انتباههم على التشابهات بين الاضطهاد النازي لليهود والجماعات الدونية الأخرى»[18]، يقرُّ روزنفيلد أن «جهودًا من هذا القبيل لتحليل المحرقة على أنها مثال عن الإبادة الجماعية أسهمت بصورة كبيرة في خلق السبب الأكبر للفهم التاريخي»[19]، بيد أنه يخلص إلى أنه:

> رغم ذلك ومن الناحية العمومية تمت عرقلة هذا المشروع؛ نتيجة لغياب تعريف مجمع عليه لمصطلح الإبادة الجماعية بحد ذاته، ونتج من عدم اتفاق العلماء حول أي الجماعات التي ينبغي عدُّها الجانية، وأيها التي تعد

الضحية، صعوبة بتحديد جرائم مماثلة للمحرقة؛ لتستمر المحرقة بمقاومة التأريخ بوصفها مثالًا على الإبادة الجماعية[20].

تبعث هذه المقالة النقدية على الفضول فيما إذا كانت مقارنة المحرقة بأنماط أخرى من الإبادة الجماعية أسهمت في سبب الفهم التاريخي، بمعنى آخر ما مشكلتها؟ وحتى بالافتراض على نحو جلي أنه ثمة تنوع في التعاريف، فهل ستكون الاختلافات بالغة جدًّا لدرجة تحول دون أي مقارنة مطَّلعة للمحرقة مع أنماط أخرى من الإبادة الجماعية؟ تميل التعاريف في الواقع نحو التلاقي حول مفهوم ضيق نسبيًّا؛ لتعترف بالقتل الجماعي وحده ضد أي نوع من الجماعة على أنه إبادة جماعية، ومهما كانت المشكلات الناجمة عن هذا المفهوم، فإن المقارنات من منظوره واقعية بامتياز، وقد يكون النقاش حول المحرقة بوصفها حالة إبادة الجماعية مستمرًّا إلا أنها بالكاد تكون الحالة التي تستمر في مقاومة التأريخ.

ثمة عنصر متناقض مع الحقيقة في ملاحظات روزنفيلد، إذ عُدت المقارنة مضلِّلة تمامًا؛ لأنها استبدلت معيار المحرقة بمفهوم مترابط منطقيًّا عن الإبادة الجماعية، فالمشكلة لا تدور حول التعميم وإنما حول قلته بشكل كبير؛ لهذا الغرض بالذات غالبًا ما تركز المقارنات على الفروق الثانوية ذات الأهمية المحدودة، ما يعزز تفككًا كليًّا في دراسات الإبادة الجماعية. «تضم مجموعة ألان روزنبوم من المقالات المقارنة عن تفرد المحرقة الكثير من الأمثلة عن هذا الأسلوب غير الصحيح»[21] يحلل فيها روبرت ف.ميلسون ثلاثة أبعاد تختلف فيها الحالة الأرمنية عن المحرقة:

بداية كان الأتراك الشباب مدفوعين إلى درجة كبيرة بعقيدة القومية، في حين كان النازيون مدفوعين بعقيدة مثقلة بأثر الداروينية الاجتماعية

> والعنصرية، وثانيًا كان الأرمنيون جماعة إقليمية تتمركز في شرق ولايات الإمبراطورية، ولديهم مزاعم تاريخية بامتلاك الأرض، وخلافًا لذلك لم يكن اليهود جماعة إقليمية، بل كان على النازيين أن يأتوا بسياسة من الإبادة الجماعية للإطاحة باليهود من شأنها أن تتجاوز ألمانيا وحتى أوروبا، وأخيرًا تمحورت طريقة التدمير التي مُورِست ضد الأرمن حول تصديرهم ورميهم بالرصاص وتجويعهم، في حين قضى ضحايا النازيين في مخيمات الموت، وهذا لا ينفي أن نسبة عالية من ضحايا النازيين قضوا أيضا رميًا بالرصاص وجوعًا بالطريقة التي قضى بها أسلافهم من الأرمن[22].

إنه لأمر يبعث على الصدمة، أن النقاط الثلاث كلها مضللة، ومن الوضوح بمكان أن الداروينية الاجتماعية والعنصرية كانتا أمرين مهمين في العقيدة النازية، إلا أن حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي (الترجمة الإنجليزية لاسم الحزب كاملًا وهنا العربية) بالكاد تتأثر بالقومية، وقد نفت قرون استيطان اليهود في بلدان ومناطق ومستوطنات في أوروبا الشرقية، وتعلق قاطني القرى اليهود بأرضهم، فكرة أن اليهود لم يكونوا جماعة إقليمية. وتتضح أهمية هذه الإقليمية بالنسبة إلى السياسة النازية المعادية لليهودية بتصميمهم على اجتثاث اليهود من أوطانهم، فيقر ميلسون بأن الكثير من الضحايا النازيين قضوا أيضًا جراء التهجير والرمي بالرصاص والتجويع الذي قاساه الضحايا الأتراك، وبينما تكون المنهجية الجديدة لمخيمات الإبادة صادمة، فإن نهاية التدمير كانت مماثلة، وتؤكد هذه النقطة المعيبة حقيقة أن النقاش الذي لا يوجهه مفهوم عام متطور حول الإبادة الجماعية يركز على مسائل ثانوية تاريخيًّا وعلى الاختلافات التي تمت المبالغة فيها[23]. وعلاوة على ذلك يطرح باحث أرمني آخر يدعى فاكان دادريان Vakahn Dadrian مقارنات

معيبة بالطريقة نفسها، تشوه ادعاءاته التاريخ اليهودي لخلق صورة عن التميُّز الأرمني، إذ يدَّعي أن اليهود والأرمن ظهروا بصفة ضحايا لأسباب متناقضة، فقد مُحق الأرمن في وطنهم الأم أرمينيا التاريخية، أما في الحالة اليهودية فقد مُحق ضحايا اليهود على أيدي حكام البلد المضيف على أساس أنهم تجمع سكاني مهاجر، ويؤيد هذا الادعاء بصورة ساخرة وغير متعمدة الأساس المنطقي لهتلر الذي يقف وراء الإطاحة باليهود، وبالطبع يدور الهدف الرئيس وراء مقارنة دادريان حول تعزيز مطالبة الأرمن بوطنهم الأم.

قد يسأم القارئ من هذه المقالات النقدية، لكن هدفها محوري بحت، لهذا الغرض بالذات تنزع مقارنات قضايا أخرى بالمحرقة إلى استنساخ مفهوم آخر ضيق للإبادة، والزج بخصائص ثانوية تطمس التشابهات الجوهرية، ولذلك وفي سبيل إدراك أنواع أخرى من الإبادة الجماعية لا تقتضي الضرورة مقارنتها بالمحرقة التي كانت بوصفها حدثًا خاصًّا على صُعد شتى، بل تفسيرها من ناحية مفهوم عام متماسك، فلسنا بحاجة إلى معيار يوجه النقاشات نحو مبدأ شمولي للإبادة الصناعية التي من شأنها طمس حتى إبادة النازيين الجماعية لليهود، فنحن بحاجة إلى مفهوم مترابط منطقيًّا، وشامل واجتماعي يتناول الإبادة الجماعية، ويفسر التجارب التاريخية.

المحارق والمجازر الجماعية

عندما تُنبذ الجدالات المحيرة كلها المتمحورة حول التفرد، فإن العلاقة بين المذهب التجريبي التاريخي والمحاججة الخاصة التي تنتجه تستمر بالتأثير سلبيًّا في الدراسة المقارنة، وتبقى النسخ الأكثر اعتدالًا من الاستثنائية

نافذة، حيث يقول يهودا باور Yehuda Bauer بصورة مؤثرة إن الحملة النازية المعادية لليهودية تمثل شكلًا متطرفًا من أشكال الإبادة الجماعية، وبناءً عليه فهي تستحق التسمية المستقلة «المحرقة»[24]، لذلك تبدو حالته أكثر عقلانية؛ لأنه يعمم مصطلح المحرقة بصفته نموذجًا مثاليًّا يمكن أن ينطبق على حالات إبادة جماعية أخرى؛ كالإبادة الجماعية للأرمن، ويجيز إمكانية تكرار المحرقات: «فالوقائع تحدث لأنها ممكنة الحدوث، وإن كانت ممكنة الحدوث مرة فهي ممكنة الحدوث مرة أخرى، وبناءً عليه لا تعد المحرقة أمرًا فريدًا، لكنها توجه تحذيرًا للمستقبل»[25].

تمنح الصلاحيات الأوسع لمصطلح المحرقة الجدال معقولية أكبر، كما هي الحال مع ستانرد أحد معارضي تفرد المحرقة الذي يؤكد بصورة جدلية قائلًا:

> «فيما يخص حصر استخدام كلمة محرقة بالمراجع التي تختص بالتجارب اليهودية تحت حكم النازيين، فإن ذاك النسخ قد حُفظ بعد فوات الأوان بثلاثة قرون، رغم أن المحرقة تنطبق بصورة واضحة وحصرية على الإبادة الجماعية التي ارتُكبت على يد النازيين ضد ضحاياهم، فإن المحرقة وفي لغة أكثر عمومًا بصفتها مصطلحًا ينطوي على التدمير الجماعي أو الذبح تنتمي إلى أي شخص يهتم باستخدامه، وفي نهاية المطاف هي كلمة قديمة جدًّا....»[26].

يصبح محق الشعوب الأصلية بالنسبة إلى ستانرد «المحرقة الأمريكية»[27]، ويصبح محق الحركات السياسية ذات الاتجاه اليساري، وحركات الطبقة الاجتماعية العاملة خلال الحرب الأهلية الإسبانية «المحرقة الإسبانية»[28] بالنسبة إلى بول بريستون Paul Preston، لكن تعميم مفهوم المحرقة الصادم

بصورة وصفية يضيف الشيء القليل إلى المفردات العلمية الاجتماعية، ويجيز التمييز بين المحرقة، وعمليات الإبادة الجماعية المألوفة، ويعمم الفكرة المتناقضة لفظيًّا للإبادة الجماعية المتطرفة التي تكون أحيانًا أسوأ من الإبادة الجماعية المحضة على حالات أخرى مختارة، إلا أن معنى المصطلح متقلقل إلى حد أبعد من أن يحظى بقيمة مفهوم عام، فالهدف العلمي الذي يخدمه هذا التصنيف ليس واضحًا بما أن القتل الإفنائي ينبثق عن القتل المألوف المرتبط بالإبادة الجماعية، ويبعث على تجذيره، ومن هذا المنطلق لن يكون من السهولة تحديد الفرق بين المحرقة وعمليات الإبادة الجماعية التقليدية، وأن هذا الفرق ليس له أهمية بالنسبة إلى الضحايا، وكما يعلق لوبيت «إن الحقيقة وراء أن جماعة فرد ما لم تكن مستهدفة بصورة إجمالية بالإبادة، هو فرق على درجة من الأهمية، لكنه يشكل بالكاد عزاء كبيرًا للغجر والمتطرفين والبولنديين والصقليين... إلخ ممن قام النازيون بتصفيتهم»[29]، إنه لأمر أكثر فائدة أن ترى الإبادة الممنهجة نوعًا معينًا من السياسة المبيدة للجماعة التي عندما تُتابع بنجاح، تؤدي إلى دمار مادي أكثر شمولًا، إضافة إلى دمار اجتماعي عام لجماعة مستهدفة؛ لذلك يعد نطاق الإبادة وأشكالها مسائل مهمة لكنها بالكاد تُعزل عن دراسة الإبادة الجماعية.

رغم أننا تخطينا الجدال العقيم حول التفرد، فإن الأثر الموهن للعزيمة لنموذج المحرقة يبقى بناءً على ذلك، لقد أثَّر دوره المهيمن بقوة في الميل لحصر الإبادة الجماعية في القتل الذي ينتشر اليوم في أنحاء العلوم الاجتماعية كافة، وحُصرت الإبادة الجماعية عمومًا بالإبادة تمامًا، كما هي حال سياسة النازية المعادية لليهودية التي فُسرت بصورة مبالغ فيها فيما يخص مرحلتها

الأخيرة الإبادية، لقد أُعيد على نحو واسع ابتداع وجهة نظر تشارني المختزِلة في أن الإبادة الجماعية هي قتل جماعي بالمفهوم العام في تعاريف جديدة، يرتقي ليفين برأي عن الإبادة الجماعية على أنها «حدث فعلي للقتل الجماعي، محدد من جانب منظومة دولة للتصفية الجسدية للجميع في آن معًا لتجمع سكاني شامل، يُنظر إليه على أنه يشكل تهديدًا لها»[30]. وفي الكتاب المدرسي لباربرة هارف Barbara Harff وَتيد روبرت غُر Ted Robert Gurr عن النزاع العرقي تعد «الإبادة الجماعية قتلًا جماعيًّا مُنفَّذًا على يد أو بالتواطؤ مع هيئات سياسية وموجهة نحو جماعات متميزة عمومًا ومحددة»[31].

تكون الإبادة الجماعية في الإطار التحليلي الشامل عند مان محدودة أكثر منها مصطلحًا واسعًا، في إشارة إلى «القتل الجماعي العمد في سياق الإبادة المتعمدة والممنهجة والشاملة»[32]، وبناءً عليه يعتنق مان في ما يخص القضية النازية حصر مؤيدوي تفرد الإبادة الجماعية باليهود، إذ كانت إبادتهم «الإبادة الجماعية الوحيدة الحقة والكبرى التي حاول النازيون ارتكابها»[33]؛ كان قتل النازيين للألمان المتخلفين عقليًّا بالنسبة إليه أمرًا شاذًّا، تاركين أعدادًا كبيرة على قيد الحياة ليقضوا في الإبادة الجماعية، وقد قام النازيون حقًّا بشحذ غايتهم لتصل إلى قتل الغجر، لكن وبما أن غرضهم أُحبط بفعل محجر مراوغ، ووقع قتلى تراوح عددهم بين 200.000–260.000 قتيل، كانت تلك مجرد «محاولة إبادة جماعية»[34]؛ كان القتل الجماعي لنخبة بولندا مجرد قتل سياسي ممزوجًا بالتمييز العنصري، والترحيل على نطاق واسع للبولنديين الآخرين؛ إذ لم تكن النتيجة المرجوة إبادة جماعية بكل معنى الكلمة، كان عدد السجناء السوفيتيين جراء الحرب وعدد الضحايا المدنيين مروِّعًا، بيد

أن «هـذا الأمـر لـم يكن إبـادة جماعية بحق؛ لأنـه كان ثمة كثير من السـوفييت السلوفينيين للتفكير مليًّا بقتلهم جميعًا»[35].

الخلاصة

يُظهـر هـذا الفصل كيـف أن التطابق التـام للإبادة الجماعيـة والمحرقة دعـم المفهـوم العـام الضيـق الذي ناقشـته فـي الفصـل الثالـث، إذ إن معادلة الإبادة الجماعية بشـكلها النهائي؛ أي التصفية الجسـدية الكلية لا تشـوِّه الفهم العام للإبادة الجماعية وحسـب، بل تشـوِّه تاريخ الإبـادة الجماعية النازية بحد ذاته، وكان لتغلغل هذا الأسـلوب تشـعبات في دراسـة العنف السياسـي بأكمله، فقـد تمخَّض عنـه السـؤال عن الكيفيـة التـي ينبغي فيهـا وصف الحـالات التي تكـوِّن مجـازر جماعيـة بنـاءً علـى تعريف لِمكـن، أو تعريف الاتفاقيـة، لكنها تقع خارج التخفيف المضيّق حديثًا، وقد تحلى ضباط وصحفيون وباحثون بالسرعة لإعـادة ابتكار الإبادة الجماعية بمصطلحات جديـدة، ويعد أكثر المصطلحات شـيوعًا فـي التطبيـق لكـن أقلَّهـا منطقيـة أو اسـتعمالًا التطهيـر العرقـي الـذي أناقشـه في الفصل التالي، إلا أنه ليس إلا مصطلحًا واحدًا من سلسـلة واسـعة مـن مصطلحـات جديـدة، إذ إنني أطرحها في الفصل التالـي لأجعل منها ذات فائدة؛ لأنها بحاجة إلى أن يعاد دمجها في إطار إبادة جماعية.

obeikan.com